الطائفية

رائدة المنهج الصدامي

■■ الشيخ ناجي الزواد*

في البدء:

جُبِل البشر بمختلف توجهاتهم وانتماءاتهم ولغاتهم منذ نشأتهم على تشكيل تكتلات ومنطلقات ينضوون تحت مظلتها، وجرت عاداتهم على التجانس والانسجام وفق ما يتفقون عليه من أفكار ومعارف وتوجهات، فكل مجتمع له من الخصائص والسمات ما يتميز به من غيره من المجتمعات، وهذا التنوع والاختلاف لم يأت للتعبئة لنزعة عدوانية مقيتة بين البشر، وإنما لتتلاقح أفكارهم ومعارفهم في استنباط رؤى وبصائر تدفع بناء إنماء نسيج اجتماعي إنساني متناغم، تتحقق له الكرامة والأمن والحرية، على أساس المعايير والمنطلقات الخلاَّقة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

وكما هو حال الأسرة الإنسانية في توجهاتها ومنطلقاتها الفكرية والمعرفية، كذلك يبرز لديها المسار العقدي وهو لا يقلّ أهمية عند كل مجتمع، فكل جنس من أبناء المنظومة الإنسانية يدين إلى عقيدة قد تكون صحيحة أو مغايرة للفطرة والمنطلق السوي، وهو النسق السائد في سائر بقاع المعمورة منذ القدم، وما نشأت عليه أحوالهم واصطبغت به ملامح

* عالم دين، كاتب، السعودية.

(١) الحجرات، ١٣.

حياتهم، ورغم كل ذلك فإن الرسالة المسلمة لم ترفع شعار العدوانية تجاه تلك المعتقدات، أو تندفع لتأسيس مشروع ناهض لاستئصالها والقضاء عليها، وإنما كان المنهج واضحاً بما يضم من معالم ورؤى تبعث على السلم والتسامح مع سائر الأجناس بما يحملون من معتقدات وأفكار ومسارات متعددة في هذه الحياة، من أجل ذلك جاء المنطلق القرآني بالبصائر الواضحة التي لا تسوِّغ أي نوع من أنواع الظلم والاستبداد تجاه معتقدات الآخرين وميولاتهم، قال تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

ومن هذا المنطلق أرست قيم الدين ومبادئه الفاضلة وسائل الحوار الهادئ القائم على إثارة الحجج والبراهين بعيداً عن الغوغائية والانتقاص لحقوق الآخرين مهما بلغت هوة الخلاف وتغايرت المنطلقات والأفكار، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2]. وحرصت بكل ما تملك من إمكانات ومآثر للتوسل بالوسائل والسبل المثلى النافية للتشنجات والصدامات الباعثة على التنفير والابتعاد عن الحقائق والرؤى، وتعزيزاً لاتخاذ هذا السلوك الخلاق في حركة الدعوة وإيصال مناهجها إلى الآخرين عبر القنوات السلمية، يقول تعالى: ﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[3].

لمحة خاطفة على المفهوم الطائفي:

وقبل الخوض إسهاباً في أطناب الحديث الطائفي لا بد من الوقوف لبرهة قصيرة لاستظهار المعنى الحقيقي لهذا المسمى وما يضمر من مضامين منطوية في أعماقه، ولعله يفسر كسلوك وممارسة على اتجاهين:

١- الاتجاه الذي يُحوِّل الانتماء المذهبي إلى ظاهرة عدائية تتسبب بمنع الآخرين مزاولة حقوقهم وخصائصهم المشروعة، فتمارس بحقهم كل ألوان التغييب والإقصاء، وهو النحو الرائج الذي يمارس على شيعة أهل البيت عليهم السلام في العديد من الدول والبلدان الإسلامية.

٢- الاتجاه الذي يتحول فيه الانتماء المذهبي إلى سبب رئيسي لإتاحة الفرص الخصبة، فيحصل أتباعه على الكثير من الحقوق مقابل تجريد شرائح اجتماعية حقوقهم، فيصبح

(١) البقرة ٢٥٦.
(٢) المائدة ٨.
(٣) النحل ١٢٥.

الانتماء البوابة الواسعة التي توفر كل السبل الخاصة والعامة المتوفرة في قطر ما، وبمثابة الجسور الأساسية للوصول إلى المناصب الراقية والمسؤوليات الكبرى، بغض النظر عن الكفاءة والمستوى الذاتي للشخص.

الطائفية المنشأ والمنطلق:

للوهلة الأولى قد يصعب التشخيص الدقيق لمنشأ النزعة الطائفية تاريخيًّا، ومن له قصب السبق في تأسيس مناهجها ومساراتها، وقد يستغرق ذلك بحوثاً ودراسات مطولة لاستقصاء نتيجة استقرائية في هذا المجال، غير أنها ربما برزت بشكل واضح عند الديانة اليهودية، التي تصورت أنها الأمة المستخلفة على الكائنات دون غيرها من الأعراق، ولها من الوصاية والصدارة ما ليس لغيرها من شرائح المنظومة الإنسانية، فاتخذت من الأساليب والممارسات القهرية تجاه الآخرين ما لا يستساغ شرعاً وعقلاً، باعتبارها الممثل الشرعي لنواميس السماء، ثم برزت تارة أخرى عند الديانة النصرانية حينما انقسمت إلى طوائف ومعتقدات متعددة.

أما عند المسلمين فلعل معالمها اتضحت أبان العصر الأموي الذي اتخذ نمطاً استبداديًّا لقسر عامة الناس على اتِّباع منهج متوافق مع مرئياته ومصالحه وأهدافه، فلم يجعلها ذلك تقيم حالة من التصالح والتآلف مع التوجهات الأخرى، فأغارت بكل ما تملك من إمكانات على المدارس الإسلامية المخالفة لها في الرأي، ثم تلا النظام الأموي الوريث العباسي الذي عزز أسس وركائز الطائفية ومكنها من ممارسة أنشطتها بحرية تامة.

ومن الملاحظ تاريخيًّا أن هذا النمط السلوكي من التعامل السائد تجاه أطياف متنوعة في الأمة وقهرها اقتصاديًّا ومعنويًّا، هو الذي كرَّس حالة من النزاع والغربة داخل الوطن المشترك، وظلت تلك الحملات المحمومة ممتدة طوال التاريخ لتمارس بحق التنوعات الأخرى الإقصاء والتهميش، فلا تتيح لها حق المشاركة السياسية والمهنية في مجالات الحياة، فتتأجج أوضاعها بمزيد من التوتر والانفصام الداخلي، كردة فعل إزاء ما يمارس بحقها، وفي المقابل تتحرك الدوائر المقربة من النظم السلطوية المستبدة بنشاط فاعل في ظل الفضاء الحر المتاح لها، لتستولي على جميع المقدرات والثروات دون رقابة والتفات إلى ما تقوم به من تهديد الأمن والاستقرار، والتلاعب بمصائر الآخرين وسلب حقوقهم وخصائصهم المشروعة.

ولا غرو أن من أعظم الجرائم التي ترتكب بحق الإنسانية على وجه المعمورة هي حينما تقسم شرائح المجتمع على أسس عرقية أو قبلية أو مذهبية، فتنشأ الأرضية الخصبة التي تصنف المجتمع إلى طبقات ومستويات مختلفة داخل الكيان الواحد، فتسود حالة من الطبقية والعنصرية المزعزعة لوحدة المجتمع ولحمته، ليس من منطلق الكفاءة والاقتدار، وإنما انطلاقاً من معايير التعصب الديني أو المذهبي أو العرقي، ولا ريب أن هذه الحالة

كانت ولا زالت راسخة عند الكثير من المجتمعات والبلدان العربية والأوروبية على حد سواء، ولم تزل رواسبها متجذرة في الأعماق، وستظل البشرية تتكبد الخسائر أثر ذلك النمط السلوكي المستعلي.

وقد يرد تساؤل هام في سياق الموضوع الذي نتطرق إليه: أليس من المسوغ لكل طائفة أو جماعة أن تؤسس لها كيانات ذات دعائم متينة وراسخة؟ ثم أليس من الحق المشروع أن تعزز مكانتها وتحصد أكبر قدر ممكن من المكاسب في المراكز الحساسة؟ وهل يستساغ تجريمها وقذفها بالاتهامات لأن الفرصة سنحت لها دون غيرها لتحقيق أهدافها ومقاصدها؟ وإذا كان كل ذلك لا يلقى قبولاً واستحساناً من كافة القطاعات المتنوعة فما المبرر لتحميلها الجناية التاريخية بكاملها؟ إضافة إلى أن العالم يعيش اليوم في ظل النهضة العالمية للتمحور عبر تشكيل التنظيمات والتكتلات؟

وللوهلة الأولى قد لا يبدو ضير فيما ورد فمن حق التكتلات والجماعات أن يحققوا المكاسب والإنجازات، وهذه سنة الحياة التي تدفع الإمكانات والقدرات نحو البناء والتقدم، والتسابق على تقديم الأفضل، لكن حين يكون ذلك على حساب إقصاء الآخرين واتخاذ الوسائل والسبل لفرض حالة قهرية ممانعة من الإسهام والمشاركة، وحصرها ضمن أطر ومهام محدودة ودونية، عندها لا يكون ذلك مستحسناً ولا مستساغاً، بل هو جرم حقيقي تشجبه جميع الشرائع والقوانين الدينية والإنسانية، فالمعيارية هي ما يقدمه الإنسان من حقائق وإنجازات بعيداً عن المحاور العرقية والقبلية والمذهبية، قال تعالى: ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[1].

وتلك التركة الثقيلة التي ورثتها أجيال الأمة المسلمة من النزاعات الطائفية المزمنة، أضحت من القضايا العالقة التي أهدرت من وقتها وقدراتها وإمكاناتها الشيء الكثير، وقسرتها على مواجهة تحديات كبرى، ظلت ولا زالت الهم الشاغل الذي يستحوذ على جل منطلقاتها وتطلعاتها لبناء نسيج اجتماعي متلاحم ومنسجم، مهما كانت توجهاته وميولاته، وأمام ما يبذل من مساعٍ إصلاحية حثيثة في سبيل تنقية المناخ وعلاجه من تلكم الرواسب المتكلسة، فإن تلك التوجهات لم تكف عن الهرولة لتعكير الأجواء بالقضايا المذهبية والحزبية وإثارة النعرات الطائفية.

إضافة إلى أن «المجتمع الذي يتساوى الناس فيه أمام القانون، وينال كل ذي حق حقه، من دون تمييز فيه لطائفة على أخرى، هذا المجتمع تقل فيه دوافع العدوان، وأسباب الخصومة والنزاع. أما إذا ضعف سلطان العدالة، وحدثت ممارسات الظلم والجور، وعانى البعض الحرمان والتمييز، وأتيحت الفرصة لاستقواء طرف على آخر بغير حق، فهنا لا

(١) المائدة، ٨.

يمكن توفر السلم الاجتماعي، حتى ولو بدت أمور المجتمع هادئة ومستقرة، فإنه استقرار كاذب، وهدوء زائف، لا يلبثان أن ينكشفا عن فتن واضطرابات مدمرة»[1].

الطائفية الأغراض والمقاصد:

لقد عانت الأمة المسلمة طوال حقبها التاريخية المنصرمة من النزاعات الطائفية التي كانت ولم تزل تغرق الواقع بالظواهر والعلل المستعصية، وتلغم ساحتها بالوسائل والآليات التي تصعد من وتيرة التشنجات الداخلية، لتعم الفوضى والخلافات في شتى ميادينها وأروقتها المهمة والمؤثرة، وكلما تجاوزت الأمة مرحلة تاريخية حرجة وقاسية بفضل علمائها ومصلحيها المتنورين والمخلصين وظن أنها تعافت من ظواهرها المرضية زج بها في شرك آخر، ليلتهب كيانها العقدي بنار الفتن الطائفية العدوانية المستعرة.

وبرغم المساعي الخيرة التي بذلت طوال العهود السابقة لتصحيح المنطلقات والأفكار وبعث ثقافة السلم والوئام بين سائر الأطياف المسلمة، إلا أن ذلك التوجه ظل هو السائد والمسيطر على الواقع ورهاناته الملحة، ولقد مارست التوجهات المغرضة الدخيلة ولا زالت شتى الوسائل والسبل لإغراق الواقع بالأزمات والفتن، الأمر الذي حقق الانتكاسات المتتالية مدى القرون التاريخية السالفة، وغدت المجتمعات رهينة ذلك النمط المغاير للمعايير والمثل الخلاقة.

إضافة إلى أن المسلسل الدرامي ذو النزعة الطائفية لن يتوقف عند كسب جولة من جولاته، وإنما سيواصل مساعيه بذات المنوال وسيكرس جهوده لاستحداث الوسائل والآليات التي تحقق له انتصارات كبرى في معركة المنطق المتخلق بالقيم والمبادئ الراقية والفكر الفوضوي الغوغائي الذي لا ينضبط للمعايير والمثل السامقة.

ثم إن التيار الطائفي لم يتورع من الترويج والتحريض ضد المختلفين معه عبر القنوات الإعلامية المختلفة بين مرئية ومسموعة ومقروءة، فكتب الكثير من الكتب والنشرات التي أغار بها على فكر وعقيدة الأطياف الاجتماعية المخالفة له، وقد ابتغى عبر محاولاته ومساعيه المحمومة تضليل وجهة الرأي العام وصرفه عما يتجلى له من حقائق ورؤى، وصياغة الفكر المعاصر وفق تلك المضامين المغايرة، التي لا تفقه الدين إلا بلون العصبية والعدوانية المقيتة.

وإذا سلمنا جدلاً أن الدافع والباعث على النزاع الطائفي المرير الذي امتد طوال القرون التاريخية المنصرمة ولا زال هو الحرص الشديد على قيم الدين وحفظ مبادئه الأصيلة،

(١) الصفار، الشيخ حسن موسى، أحاديث في الفكر والثقافة والاجتماع، ج٣، ص٣٥، مؤسسة البلاغ، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

فينبغي أن تبدل تلك الجهود لصد المخاطر والخطوب التي تهدد مستقبل الأمة وهويتها الحضارية، وهو المنطلق الحقيقي للغيرة على حرمات الشريعة ومقدساتها، لا أن توجه الحراب ضد أبناء الجلدة الواحدة والوطن المشترك فيؤجج أوار صراع تكون نتيجة الجميع الخسارة.

والنظرة الأحادية الضيقة والاندفاع بعقلية قاصرة متحجرة هي الباعث الحقيقي لاختلال المعايير لفهم الدين ومقاصده، وأساس منشأ التحول إلى نمط وسلوك عدواني ضد الآخر، حيث لا يبقى مجال للتسامح والرحمة وصيانة الحقوق، وتغييب جل القيم والمفاهيم التي تبتني عليها ركائز الشريعة ومبادئها الواعدة، لتتهيأ الأرضية الخصبة التي تنمو في فضائها الثقافة العدوانية المغايرة، المتصدية للعلاقة الإنسانية الطبيعية.

صناع طفيليات الطائفية:

ثم قد تشترك جهات متعددة في تهيئة الأجواء الصاخبة والمناخ الملائم لصناعة التوجه الطائفي والتصعيد من حركته ونشاطه في أوساط المجتمعات الإنسانية، ولم يكن هذا الاحتضان والتبني وليد الساعة ومقتضيات المرحلة الراهنة، إنما يستند إلى امتداد تاريخي قديم، ولقد استخدمت تلك الجهات عناصر التطرف والتعصب للتضليل تارة، ولإشغال الساحة وصدها عن تأسيس آليات الانطلاق والتقدم تارة أخرى.

ورغم أن جميع الأطراف المشتركة قد تصل إلى أهدافها، وتجسيد تصوراتها ومرئياتها، غير أن صاحب الحظ الأوفر والنصيب الأكبر في الاستفادة من إثارة النعرات والنزاعات بين الفئات الاجتماعية هو العدو الخارجي.

وعلى الرغم من أن الجذور التاريخية لامتداد النزعة الطائفية هي قديمة المنشأ في المناخ الإسلامي وأروقته المتعددة، إذ لم تخل فترة أو مرحلة من تصاعد ظاهرة التشنجات والمشاحنات الداخلية التي تبرز في فضائه بعناوين وصيغ تتناغم ضمن المعطيات والقضايا المفتعلة، إلا أن الاستعمار وجد الفرصة السانحة والأرضية الخصبة التي يتغلغل من خلالها لضرب مشروع وحدة الأمة وشل قدرتها ليتسنى له تحقيق رغباته وطموحاته الاستعمارية، فيتاح له الهيمنة التامة على مقدراتها ومكتسباتها، ولقد أبدع بما امتلك من وسائل وآليات في تطوير العوامل المساعدة لإطالة مدى الخلاف والصدام الدائر بين قطاعات الأمة وتوجهاتها.

إلا أنه من الحق الاعتراف أن ليس كل ما يجري من أحداث وأزمات متعاقبة على أرض الواقع صادر عن أولئك، أو بالضرورة تحميل الغير ما لدينا من تبعات ورواسب، وكأن لا جناية نرتكبها في تأجيج الأوضاع وتصعيد هوة الخلاف والنزاع بين الكتل المتنوعة، إلا أن شريعة المستعمر تدفع في هذا الاتجاه، سيما أنه المستفيد الأكبر من بقاء الأوضاع

جارية على هذا النسق، وترك الساحة منشغلة بتلك الأوضاع، لتستمر في سباتها وضياعها مدة أطول مما هي عليه، ورغم أن الأساليب المستخدمة باتت مكشوفة وغير خافية على جل التوجهات والتكتلات إلا أن الغالبية تجاري الواقع بمظاهره وعلله وتغمض عن الحقائق لعدم قدرتها على مواجهة تلك التحديات، وليس ذلك نتيجة فشلها وهزائمها في خضم هذا الصعيد، وإنما هو بسبب الهواجس والأوهام الساكنة في أعماقهم، التي ضاعفت من تشتتهم وتفككهم العضوي فتراكمت خسائرهم وتقهقرهم.

ولا غرو أن تلك المنطلقات اندفعت بكل أطماعها وعدوانيتها لتجهز على مقدرات وإمكانات الأجيال المسلمة، وسلبها ثرواتها ومواردها الحيوية، فاستخدمت العديد من الطرق والوسائل المبتكرة قديماً وحديثاً لبلوغ أهدافها وطموحاتها، وبما أن الساحة كانت مهيأة لغرس بذور الفتن الطائفية ولديها القابلية للتعاطي مع تلك الأوضاع، فإن الأعداء عثروا على ضالتهم التي تحقق لهم مآربهم على طبق من ذهب.

كيف نحد من الظاهرة الطائفية؟

بعد تلك الإطلالة العاجلة لقراءة الاتجاه الطائفي المتصاعد في أقطار الأمة وأروقتها وزعزعة لحمتها ووحدتها، ما هو السبيل إلى الخلاص من هذا الواقع؟ وكيف لنا أن نحدّ من تلك الظواهر المرضية؟

من المؤكد أن الظاهرة الطائفية كغيرها من الظواهر التي إنما تنتشر في أوساط المجتمعات نتيجة لفراغ ثقافي وتخلخل في البنى المعرفية والمهنية، إضافة إلى ما تتهيأ من قابليات تجعل ذلك النمط والسلوك يسود على غيره من الثقافات والأفكار، وغالباً ما تندفع تلك التوجهات لتخرق القاعدة الأساسية التي ترتكز عليها المجتمعات من منطلقات وأفكار وقيم راسخة، فتتطاول عليها بما تنشئ من تناقضات وتوجهات بعيدة عن الأصالة والتراث، فتمزج تلك العناصر الهدامة لتكرس منهجاً مغايراً ومختلفاً للمعارف والرؤى الإسلامية السمحة، وليس ذلك يعني أنها تتبنى أفكاراً نهضوية تضاهي وتتميز على الأفكار والمحاور الأخرى، إنما استفادت من الأوضاع المؤاتية التي مكنتها من ممارسة أنشطتها وأهدافها بدعم وتأييد فيما تأتي به، ولو أزيلت تلك المظلة لما استطاعت أن تحقق معشار ما حققته منذ نشأتها إلى حاضرنا الراهن.

تجفيف المنابع الطائفية:

ولا غرو أن تلك الظاهرة أضحت في عصورنا الراهنة في خضم ما نواكبه من انتكاسات وهزائم مريرة تجري على مجتمعات الأمة وفكرها وهويتها، من الأزمات المستعصية التي تجلب لها المآسي والمحن، لتتضاعف الخسائر والهزائم بشكل دائم، من ذلك المنطلق لابد من

تجفيف منابع التطرف الطائفي وعدم التعاطي معه بحال من الأحوال، لتعيش المجتمعات الأمن والاستقرار وتشترك في همومها الوطنية، فإذا كانت هذه الأهداف العدوانية التي يتبناها أولئك فلا مسوغ لإضفاء الشرعية على نشاطها وأفكارها، إذ هي لا تتعارض مع المنظومة الشرعية فحسب، إنما تخالف جميع القوانين الإنسانية.

يقول الداعية الشيخ الغزالي (رحمه الله): الشيء الذي نرفضه ويرفضه جمهور العقلاء أن يحسب أحد الناس أنَّ رأيه دين، وما عداه ليس بدين، وأن يجمد على ما عنده جموداً قد يضرّ بالإسلام كله ويصدع وحدته[1].

ويقول في موضع آخر: إن الخلافات الجزئية واقع لا بد منه، وتجاوزها لما هو أهم منها واقع لا بد منه كذلك، ولم أرَ ناساً حبستهم الجزئيات وغلبتهم على رشدهم مثل صرعى التعصب المذهبي عندنا، وأظن السبب في ذلك أسلوب تعليم العوام[2].

وفي هذا السياق ينبغي أن نسجل المدى الذي تعتنقه تلك المنطلقات ونظرتها في التعايش وطرق التعامل مع الأطياف الأخرى، فإن الأساس هو رفض الآخر والانغلاق على الأفكار والرؤى المتحجرة، ورغم أن كل مدرسة عقدية وفكرية تخضع ما لديها من أدوات وآليات وأفكار للمراجعة والدراسة لتصحيح المنطلقات وتجديد المعالم، إلا أنهم آثروا البقاء على ما بحوزتهم من ثقافات صداميه، غير متآلفة وصالحة للتعايش مهما طال بها الأمد.

ومن الدواهي المؤلمة التي بلغتها تلك التيارات أنها تأبى أن تتصالح وتتسالم حتى في ظروف القهر والخطوب التي تدلهم بها الأمة، مهما كان أثرها وضررها على رهانات الواقع، وما يواجه من أزمات مستعصية، فإسرائيل الدويلة الغاصبة التي تُجمع الأمة على جهادها واستئصالها، وتترقب عن كثب الوعد الصادق الذي يقتلع كيانها، حين تتصدى لها جماعة مؤمنة مقاومة، فتستبشر جماهير الأمة الغفيرة وتهب في تأييدها، والابتهال والتضرع إلى الله لنصرتها، يخرج علينا فقيه الطائفية ليفتي المسلمين بعدم جواز النصرة والدعاء لهم، والحال أنهم أجازوا الاستعانة بدول مشركة في حروب المنطقة للخلاص من الاحتلال الذي وقع على بعض الأقطار المسلمة، والحق أنه لو جاءت أي أمة من الأمم لتقتلع هذا الكيان الغاصب فلن تجد هذه الممانعة، بل ربما أفتوا بتأييدها ونصرها، إلا أن التعصب الطائفي سيبقى على هذا التوجه السقيم في التعايش والتعاطي، لا يستسيغ أن يسجل موقفاً صادقاً يلمّ شمل الأمة ويعزز وحدتها ومكانتها، ويحقق لها كرامتها، وبعد كل ذلك هل أسدى هؤلاء نصرة حقيقية للإسلام من هذا الهجوم السافر على وحدته وتشتيت كلمته؟ أم أنهم أغاروا بسهامهم المشبوهة على المنطلقات والأفكار الأصيلة؟

من هذا المنطلق فإنه من غير المسوغ دعم هذه المرئيات الهدامة وإسباغ الشرعية

(١) الغزالي، محمد، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، ص٩٣، دار القلم، دمشق، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
(٢) المصدر، ص٩٨.

على تحركاتها وأنشطتها المشبوهة، إلا إذا أردنا أن نقوض سبل الاستقرار وزعزعت أرضية الوطن المشترك ولحمته، وخير ما نعضد به سير انطلاقتنا لتتبعث حركة الأمة نحو النهضة والصلاح قول الله عز وجل حيث يقول: ﴿ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[1].

تصحيح المفاهيم والمنطلقات:

إننا اليوم أحوج ما نكون أكثر مما مضى إلى إعادة النظر والتراجع عن المفاهيم المشبوهة التي لم تحقق إلا الخسائر والهزائم المتوالية، فضلاً عن الارتهان إلى السلوك الدعوي بما يحمل من رواسب وشوائب تغرق الواقع بجل شرائحه وفئاته إلى معترك السجال والاحتراب مدة من الزمن قد تطول إلى أبعد مدى، والحال أن ما لدينا من منظومة شرعية وتراثية، فضلاً عن القيم الأخلاقية الراقية، تنأى بنا عن التعاطي والانسجام مع تلك التوجهات والأفكار المشبوهة والهدامة، التي ثبت بجميع القرائن فشلها وعدم صحتها، وفي خضم المشاكل والعقد المستعصية التي نعايشها ينبغي أن نعود إلى تراثنا الأصيل لنستنبط منه المفاهيم والمنطلقات ما يدعم إرادة التعايش والتوافق ضمن محاور وأطر متعددة تخدم المصالح العامة للدائرة الواسعة التي تجتمع عليها كافة التوجهات المنبعثة من العقيدة الواحدة والرسالة المشتركة، فلا مجال للتشرذم وزرع الألغام هنا وهناك لقطع الأوصال وإثارة النعرات والخلافات التي لا يستفيد منها إلا أعداء العقيدة.

وختاماً نحن أمام تركة مثقلة بالأعباء الثقيلة حفلت بالتجارب المتنوعة، امتدت قروناً متطاولة، أجهدت جلّ القدرات والإمكانيات المتاحة، ولعلنا أخضعنا قسماً منها للتداول والتدارس والامتحان، فانكشف في خضم ما واكبت من أحداث ومجريات دائرة في فلكية المعارف والأفكار، ما هو ملائم ومتناسق عما هو منبوذ وغير لائق ومتفق عليه نصًّا وروحاً، ولا ترقى إليه بحال من الأحوال قيمة من القيم الإنسانية، أو ترتهن إلى مفاهيمه ومنطلقاته نهضة بشرية واعدة، وحسبنا أن نتطلع إلى قيم ومبادئ قادرة على أن تؤسس منظومة مشتركة تسع بآفاقها ومآثرها كافة الطوائف المختلفة، لتحقق لها مواطنة متعايشة في دائرة المؤسسة الوطنية الكريمة، ومهما استبسلت مساعينا الحثيثة لتهيئة الأرضية الملائمة فلن نجد أفضل وأنبل من التجربة الإسلامية الأصيلة التي استطاعت في نشأتها المباركة أن تضم مجتمعاً مشتركاً صالحاً للبناء والنهضة، تتقاسم فيه الحقوق والمشروعية وفق معايير وضوابط إنسانية سليمة □

(١) الأنفال ٤٦.